وضع ودور المرأة فى النيل الأبيض

دكتور عباس أحمد

وضع المرأة فى النيل الابيض (١) : ـ

أتناول فى هذا المقال مناقشة دور ووضع المرأة بين المجتمعات التى تسكن شمال النيل الأبيض عامة وبين الحسانية خاصة. والتعميم هنا لايجهل بعض نواحى الاختلاف بين وضع المرأة عند الحسانية وفى بعض المجموعات الاخرى فى المنطقة، ولكن التشابه فى ذلك الوضع يجعل التعميم أفيد وأسهل لابراز الصور الاجتماعية كما يتطلب منهج التحليل .

وقد اعتمدت فى هذا المقال على معلومات جمعتها أثناء قيامى ببحث ميدانى فى قبيلة الحسانية بين عامى ٦٩/١٩٧٠ ولقد مكثت حينذاك حوالى خمسة عشر شهرا عشتها بين عرب الحسانية وتنقلت بينهم كما زرت أغلب مناطق النيل الابيض عدة مرات . كما قمت بزيارة مفيدة للمنطقة فى عامى ٧٣/١٩٧٤ لم تتعد الايام القلائل كان الهدف منها الالمام بمؤشرات التغيير الاجتماعى فى المنطقة .

ان ما كتبه علماء الأجناس الاجتماعيين عن وضع ودور المرأة فى المجتمعات الصغيرة فى العالم الثالث عامة وفى افريقيا والشرق الاوسط بالاخص ليس بالكثير بالمقارنة بما كتب عن المواضيع والقضايا الاجتماعية الاخرى . ولازالت دراسات افانز وكنسون وبارث وبيرسون والشاهى ونلسون ولويس(٢) فى مقدمة الدراسات القليلة التى تناولت هذا الموضوع بطريق مباشر وسلطت عليه الضوء كموضوع اجتماعى قائم بذاته . كما ان هناك بعض الدراسات الحديثة التى تناولت الموضوع فى اطار مواضيع أوسع كدراسات أسد بين الكبابيش وبلقيس بدرى فى الفتيحاب وشريف حرير عن الزغاوه وكوناستنا تنيدس وسامية النقر عن الزار فى العاصمة المثلثة وبكيستون عن المندارى وغيرها من الدراسات الاخرى(٣) .

لقد أوضحت هذه الدراسات أن وضع المرأة ودورها يختلف اختلافا كبيرا من مجتمع الى آخر ، وان كان العديد منها ركزت على مجتمعات سودانية وعربية

وصفت بأنها تتسم ، على الاقل فى الظاهر ان لم يكن فى الواقع ، بوضعية ثانوية للمرأة ان قورنت بالرجل وبتغول النفوذ الرجالى فى معظم الاحيان فى جوانب الحياة الاجتماعية الاخرى .

وكان من بين أهم ما أبرزته هذه المجموعة من الدراسات انه بالرغم من الاطار الحضارى العام أو الانطباع العام الذى يعكس نفوذ الرجل وهيمنته الا ان للمرأة دورا كبيرا تلعبه فى كثير من مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وان للمرأة استراتيجية تختلف من مجتمع لآخر تركز فيها على اكتساب نفوذ واعتبار بالرغم من الهيكل الرسمى الحضارى والاجتماعى الذى يضعها دون الرجل أو تابعة له ولقد كان هذا هو الوضع الاساسى الذى ركز عليه كنسون فى دراسته لوضع المرأة عند البقارة وبيرسون وبارث عند المارى بلوش(٤) .

أما دراسات بارث عن الفور ، والشاهى عن الشايقية ، فقد عكست وضعا شبه مغاير يتسم بفتح المجال الواسع لمساهمة المرأة وطموحها فى المجالين الاقتصادى والسياسى فهى عند الشايقية تشارك مشاركة فعالة فى الانتخابات العامة وبطريقة مستقلة عن زوجها أو ذويها كما تقف جنبا الى جنب مع الرجل فى نشاطه الزراعى ، وهى عند الفور تملك حقلها المستقل ومخزونها المنفصل عن الرجل .

فى هذا الاطار المقارن البسيط أود أن أناقش وضع ودور المرأة عند الحسانية فى النيل الابيض كحلقة من حلقات النقاش الدائر فى هذا المجال وللإلمام بدور المرأة فى هذا المجتمع الهام والذى له دور محسوس فى الاقتصاد الاقليمى والقومى ولما يمكن ان تسهم به المرأة فى مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مسلطا الضوء خاصة على السلبيات التى تعوق انطلاق المرأة فى هذا المجال وكيفية ازالتها أو الحد منها ولكن من الافيد أن يكون ابراز هذه القضايا فى اطار تلمس عام للعديد من جوانب وضع المرأة فى المجتمع كالوضع الاسرى والقيمى والمهنى وغيره .

مقدمة :ـ

يسكن شمال النيل الابيض العديد من المجموعات القبلية التى تجاوز الاربعين فى مجموعها على رأسها الكواهلة والتى تمثل الحسانية والحسنات والمحمدية

والعرواب والكواهله وهى مجموعة لهـا نفوذ كبير فى المنطقة . ولقد كانت حتى حل الادارة الاهلية تملك زمام هذه الادارة متمثلا فى ملء زعامات هذه المجموعة ، خاصة الحسانية ، للوظائف العليا فى الادارة الاهلية وفى شتى مجالات الحيـاة الاخرى كالاقتصاد والسياسة والعقيدة .

ولقد كان اقتصاد المنطقة لوقت قريب اقتصادا مختلطا رعويا ، وزراعيـا ، ولكن ببناء خزان جبل الاولياء عام ١٩٣٧ وقيام المشاريع الزراعية العـديدة فى الثلاثين عاما الاخيرة تجلى الجانب الزراعى المتمثل فى زراعة القطن والـذرة فى المشاريع الحكومية والخاصة . والمشاريع الكبيرة اليوم تجاوز العشرين بينمـا من الصعب حصر عددية مشاريع الطلمبـات الصغيرة .

والنظام السائد فى هذه المشاريع مماثل للنظام المتبع فى مشروع الجزيرة بحيث تنقسم المشاريع الى حواشات توكل الى المزارعـين يتناصفون بالتقـريب انتاج الحواشة مع الحكومة وتقدم ادارة هذه المشاريع للمزارعين سلفيات عـديدة لتغطية تكاليف الانتاج خاصة ان تكلفة الايدى العاملة ملحة جدا بدرجة ان المجتمع المحلى لا يغطى هذه الحاجة وان حوالى ٤٠٪ من الايدى العـاملة ، خاصـة فى لقيط القطن ، تجلب من المجموعات الرعوية المجاورة . ولهذا الجانب أهمية قصـوى فى نقاشنا لدور المرأة ولما يمكن ان تؤديه فى هذا المجال سنتناوله بعد قليل .

ويعمل الاهالى ، بالاضافة الى الزراعة ، فى رعي الابقار والضأن والماعز كما يعملون فى العديد من الانشطة الاقتصادية كالتجارة والحرف اليدوية والاشغال الحكومية كموظفين وعمال (طلبه) وفى أعمال خاصة كصيد الاسمـاك وصنـع مستخرجات الالبان كالجبنه والسمن . وتختص المـرأة بـدور بارز فى الاشغال اليدوية فى استخراج الزبدة والسمن من الالبان وليس لها دور يذكر فى المجالات الاخرى المذكورة آنفا كما سنوضح فى هذا المقال .

وضـع المـرأة فى الاسرة والمجتمع : ـ

يتسم وضع المرأة فى مجتمع الحسانية ، اذا ما قورنت بوضع الرجل ، بالعديد من السلبيات تشابه كثيرا تلك التى عددها كنسون للبقاره فى قوله : ـ

« يستطيع الرجل أن يطلق المرأة منى ما أراد فى حين ان المرأة لا تستطيع أن تجد هذا الحق الا فى حالات خاصة فقط وذلك بشهادة تستخرجها من المحكمة • والرجل وحده ، وليس المرأة ،الذى يستطيع ان يحلف بالطلاق • النساء يحصلن على القليل جدا فى حالة الوراثةعكس الرجال ، وفى قانون المحاكم شهادة امرأتين تساوى شهادة رجل واحد • والمال الذى يعطى كدية فى حالة قتل امرأة يكون نصف الذى يعطى اذا كان القتيل رجلا • النساء لا يحق لهن الاكل أمام الرجل بينما يحق للرجل أن يأكل امام المرأة وبطبيعة الحال فان المرأة دائما لها الحماية عكس الرجال ، وليس للنساء غيرضبط بسيط فى زواجهن ، وليس لهن دور مباشر فى الشئون السياسية ونساءحسر مكانهن الطبيعى الخيمة الا ان الرجال يجلسون معهن فى الخيمة بينما مكان الرجل الشجرة • والنساء لا يمكن انيجلسن فيها وتعيش النساء فى خيم ازواجهن(٦) •

ان هذه السلبيات الموروثة التى يعكسها وضع المرأة عند الحمر تنطبق فى جملتها ، مع بعض الاختلافات(٧) بالطبع ــ على العديد من المجتمعات السودانية والعربية بما فيها الحسانية ، وهى مرتبطةبموروث المجتمعات الحضارى والبيئى ولا يمكن ربطها كلية بالاسلام كما لمح بذلك كنسون فى مقالته عن البقاره(٨) •

فوضع المرأة عند الحسانية يستمد واقعه من النظام القرابى الابوى (الباترى) الذى يجعل للرجل ومجموعة الزوج وضعامميزا ينعكس فى جميع مجالات المجتمع ويختلف ذلك الوضع المميز من مجتمعأبوى لآخر • ففى الصين الوطنية مثلا تعتبر المرأة خاضعة خضوعا كاملا للرجلوهى بزواجها تكون مجموعتها قد فقدتها الى الابد وانتست لمجموعة الزوج فان ماتزوجها يحق لمجموعة زوجها تزويجها لمن يشاؤون • وليس لها أو لمجموعة أهلها شأن فى هذا الامر •

وفى معظم المجتمعات الابوية تعتبرالمرأة مجموعة حقوق وواجبات تتناقلها الاطراف الرجالية المشتلة فى مجموعة أهلهاوأهل زوجها كما أوضح ذلك بيرسون وبارث فى المارى بلوش(٩) • وللرجل عند الحسانية الكثير من الحقوق على المرأة واطفالها وله سلطة كبيرة عليها ولكنهذه الحقوق مختصرة على الرجل نفسه وليست بالضرورة تنطبق على مجموعتهفعند وفاته مثلا يحق للمرأة الذهاب

لمجموعة اهلها ويحق لها الزواج هناك كما تشاء مجموعتها وليس لمجموعة زوجها شأن فى هذا الامر .

والعلاقة بين الرجل وزوجته (أو المرأة عامة) علاقة شبه رسمية يحددها سلوك معين . فالقيم التقليدية عند الحسانية ترى أن الرابطة بين الرجل وزوجته ليست مباشرة ولكنها غير مباشرة تتم عن طريق أطفالها . فعلاقة الرجل بزوجته فى الفترة التى تسبق حلول الاطفال فى الاسرة تعكس مفهوم ان المرأة غريبة على زوجها حتى تلد له عدة اطفال فهى لاتأكل معه أو تشرب ولا تتحدث الا القليل ولكن بعد الطفل الثانى أو الثالث تأخذ العلاقة شكلا طبيعيا ليس فيه محظورات متشددة فى مجالات المخاطبة والسلوك ووجود الاطفال لا يحول العلاقة المحظورة الى علاقة الالفة والتعامل الطبيعى فحسب بل هو فى المقام الاول جواز مرور لاعطاء الرجل حقه فى أخذ زوجته من اهلها ورحيلها الى أهل أبيه كما هى العادة المتبعة عند الحسانية .

يظهر من هذا الجانب أن انجاب الاطفال مهم جدا للحسانية وان نظمهم الموروثة تشجعه وتكافىء عليه الزوجين معا . والحقيقة ان لهذا ارتباطا هاما بالنظام القبلى العام خاصة فى فترة ما قبل الاستقرار فى الاقاليم عندما كانت النزاعات القبلية والمشاحنات والمنافسة على الزعامة القبلية من سمات العصر . فعددية الرجال الذكور تعكس قوة القبيلة ومقدرتها فى الدفاع عن نفسها وبسط سيطرتها . ومن هذا يتضح ان العلاقة الاسرية ووضع الزوجين فيها وعادات الحسانية فى هذا المجال تتجه نحو ابراز اهمية عدد الاطفال وزيادتها القصوى وان نظم الحسانية هنا قد تكون احدى العوامل الهامة التى قد تفسر لنا كيف أن الحسانية ، وهم من أواخر المجموعات القبلية التى نزحت للمنطقة وقد كان ذلك فى حوالى القرن السابع عشر ، قد استطاعت فى هذه الفترة زيادة عدديتها بنسبة مضطردة مما مكنها اقتصاديا وسياسيا من بسط نفوذها(١٠) . والحسانية يشار لهم بين المجموعات القبلية الاخرى بأنهم (أولاد العنز الزرقاء) لكثرة عدد أغنامهم وأولاد (أم أربع) لأن المرأة عندهم حينما ترحل من بيت أبيها لبيت زوجها تصحب معها فى الغالب أربعة أطفال . ففى رأى القبائل المجاورة أن لامرأة الحسانية خصوبة مفرطة ولا شك ان الحسانية يضعون اعتبارا خاصا لخصوبة المرأة وعدد أطفالها خاصة الذكور منهم ،

وقد كانت القبيلة فى الماضى لا تضع قيودا متشددة فى الحياة الجنسية ولكن هذا بالطبع قد زال بزوال المحتوى البيئى الذى فرضته وجعل منه استراتيجية هامة تربط بين شئونهم الاسرية وشئونهم السياسية والاقتصادية .

والمرأة فى كل هذا تعتبر مركز الثقل ومحط آمال القبيلة ونموها الاقتصادى والسياسى ـ ويجب أن لانسى هنا أن عدد الرجال الاقوياء الذين تمتلكهم القبيلة ليس مهماً لقوة القبيلةالعسكرية والسياسية فقط بل الاقتصادية أيضا اذ يعكس مدى ثقل القوى العاملة فى الانشطة الانتاجية المختلفة . غير ان التغير الاجتماعى والاقتصادى منذ الاربعينيات والذى انعكس فى استتباب الامن وبسط سيطرة الدولة وأجهزتها الاقليمية ونهاية النزاعات والمشاحنات القبلية الطاحنة من ناحية وتطور النظام الاقتصادى الحديث الذى لم يعد يربط اقتصاد الاسرة باقتصاد مجموعة قبلية أكبر ـ كل هذا قلل كثيرا من أهمية العددية الرجالية وبالتالى لم يعد لذلك أهمية كبيرة تكسب المرأة وضعا مميزا فى القبيلة . غير ان الاقتصاد الاسرى اليوم لازال يعتمد على توفير الايدى العاملة وبالتالى فان وضع المرأة فى الاسرة يستمد بعض خصائصه من عددية أطفالها أيضا .

ان العلاقة بين الرجل وزوجته عند الحسانية فى الماضى والحاضر ليست بالقوية عموما ومن رأيى أنها ازدادت ضعفا نتيجة للتغيرات الاجتماعية والحضارية التى بدأت تعطى المرأة نفوذا واعتبارا أكبر فى بعض النواحى الاقتصادية والاجتماعية بينما لايزال الرجل يتمسك بأهداب الحقوق والسلطة التى فرضتها فى الماضى القيم الموروثة . ومما يؤكد هذا الاتجاه النسبة الكبيرة فى الطلاق والزيجات المتعددة وانه من الملاحظ أن قرى الحسانية تتميز بنسبة كبيرة من النساء المطلقات (العزبات) والخلافات الزوجية كثيرة الحدوث وقدوم الزوج أو الزوجة للشكوى من الآخر لرجال الامن أو المحاكم يعد أمرا مألوفا والعلاقات غير الشرعية بين الجنسين كثيرة الحدوث وفي رأيي ان هذا يمكن ان يفسر فى ظل التركيب الحضارى والاجتماعى الموروث والذى يضع المرأة والرجل كطرفى نقيض على أساس أن الرجل هو الاعلى والمرأة هى السفلى وللرجل السلطة وعلى المرأة الخضوع ، غير أن التغير الاجتماعى الذى طرأ على الكثير من المجتمعات السودانية ومجتمعات الدول النامية عامة قد فتح فرصا عديدة للمرأة للخروج من تلك اليد

القابضة بالرغم من النظر الى ذلك على أنه (عيبـا) من جانب المرأة فى بعض المجتمعات • والخـلافات الزوجية ومشاكل المحاكم الاسرية يمكن أن ترى على أنها قد تكون نتيجة للتناقض بين القيم التقليدية التى تضع فى يد الرجل الكثير من النفوذ والسلطة على زوجته والظروف الجديدة والواقع المعاش الذى يفتح للمرأة آفاق جديدة ومنافذ لابداء الرأى والمشورة ولا عجب ان تميل النساء الى متابعـة التيار الجديد بينما يحب الرجال التعلق بحبال الماضى وقيمه التى تساند نفـوذهم وتبسط سلطتهم ولقد اكدت ملاحظاتى فى الحقل هذا التفسير للصراعات الاسرية حيث وجدت أن معظم هذه الحالات تحدث فى الاسر التى بدأت المرأة فيها تجـد مصدرا مستقلا للرزق أو منفذا للعمـل أو الخروج من البيت •

المـــرأة ودورها الاقتصـادى : ـ

معظم سكان النيل الابيض اليوم مستقرون يعتمـدون فى معيشتهم عـلى زراعة القطن والذرة فى المشاريع الزراعية الحكومية والخاصـة • ومعظمهم كذلك يكمل معيشتهم بتربية الابقار والضـأن والماعز اما عن طريق بيعها والحصول على النقد أو عن طريق الحصول على ألبانهـا ومنتجاتها كالجبن والزبد والسمن • هذه المنتوجات يمكن استهلاكها أو بيعها للحصـول على النقـد الكافى لشراء السـلع الاستهلاكية اليومية كالسكر والشاى والملابس وغيرها •

ان التقاليد المعمول بها قد رسخت تقسيما بين الجنسين لم يتغير فى مضمونه كثيرا • فقد أوكلت للمرأة بوجه عام الاعباء المنزلية من اعـداد الطعام والشراب والقيام بنظافة المنزل ورعاية الاطفال وخدمة الزوج ، وفى مجال الانتاج الحيوانى أوكل للمرأة مهمة استخراج السمن والزبد و (الروب) • والسمن بالذات عـائد نقدى هام يساعد الاسرة كثيرا فى مجابهة متطلبات الحياة ومعيشتها وتقسيم العمل يوكل للرجل حلب الابقار وللمرأة حلب البهائم الاخرى وبيع الالبان أو توزيعهـا للاقارب من خصوصيات المرأة ، ويعتبر بيع اللبن بواسطة الرجـل عيبا كبيرا • ويمكن تفسير ذلك بأن اللبن لم يكن حتى وقت قريب سلعة نقدية تتداول فى السوق بل سلعة استهلاكية يتم تبادلها مجانا بين الاقرباء والجيران •

ان ظروف التطور الاقتصادى فى المنطقة ، والتى تتلخص فى القلة المتزايدة فى اعداد الحيوانات والاعداد المتزايدة فى السكان خاصة المهاجرين للمنطقة منهم

والذين يعتبرون (غرباء) لا ينطبق عليهم أسلوب التبادل الحر والذي هو حلقة واحدة من شبكة العلاقات المتعددة التي تربط الاقرباء والجيران ، أدت الى دخول اللبن السوق وخروجه من دائرة التبادل الاستهلاكي ولقد تم ذلك على يد المرأة لان الرجل يعتبر ذلك عيبا أو على الاقل يرى أن عيبه أقل فى حالة المرأة مما لو كان القائم بأمره رجلا • وذلك بالطبع لنسبية وضعها دون الرجل •

ولكن هناك تغييرا قد طرأ فى هذا المجال نتيجة لقيام مصانع الجبنة العديدة فى المنطقة فقد أصبح الرجال فى بعض المناطق يأخذون الالبان بأنفسهم الى المصانع لبيعها ولقد أدى ذلك فى كثير من الاحوال الى صراع بين الرجل وزوجته اذا حاول الرجل أخذ أكبر كمية من اللبن لبيعها للمصنع بينما تود المرأة الحفاظ على أكبر كمية من اللبن لغذاء أطفالها •ولكن الصراع هنا ربما كان مصدره عدم رضاء المرأة على تغول الرجل على مهمة تقليدية كانت توكل لها والتصرف فى النقود المتحصلة فيها لان الواقع هو ان فى الحالات التى يوكل للمرأة فيها التصرف الكامل فى الالبان كثيرا ما تصرفها رغبتها فى الحصول السريع على النقود من واجبها الاحتفاظ بكمية مناسبة من الالبان لاطفالها •

أن قيام مصانع الجبنة وازدياد اعدادها بدون تخطيط مدروس وبدون توعية كافية من جانب المسؤولين عن أمر التثقيف الصحى والغذائى قد أدى الى نقص متزايد فى كمية اللبن التى تحتفظ بها الاسر لغذائها وغذاء اطفالها مما ادى بالتالى الى سوء تغذية واتضح فى كثير من مناطق النيل الابيض خاصة فى قرى الضفة الغربية للمنطقة الوسطى والجنوبية لشمال النيل الابيض ، ويؤكد ذلك النسبة الملحوظة للوفيات عند الحمل والاطفال وبسهولة وقوع الاطفال فريسة للعدوى والامراض الفتاكة كالحصبه والحميات والنزلات المعوية وغيرها •

والذى تحتاج اليه الاسر بدون شك هو برامج للتوعية الاجتماعية والصحية بحيث توفق المرأة المتزوجة بين تعاملها مع المصنع وتعاملها مع اطفالها لان كليهما ضرورى لواقع الاسرة المعيشى من ناحية وللمساهمة فى بناء المجتمع المحلى والقومى اقتصاديا واجتماعيا من ناحية أخرى •

إن توفير الالبان لمصانع الجبنة مهمة اقتصادية تنموية هامة تأتى فى صالح الاقتصاد المحلى والقومى وتساهم فى عملية التنمية المرجوة ولكنه يصبح عملا

ضارا اذا تم على حساب غذاء أطفال الاسر المحلية الذين يحرمون بذلك من مكون هام لبنيتهم وصحتهم فى سبيل أن ينعم سكان المدن بجبنة المصانع الريفية فى حين أنهم قادرون على ايجاد البديل الغذائى بين العديد من السلع التى هى بين ايديهم وفى مقدرتهم الشرائية .

لذا فالواضح أن المرأة هى العامل الاساسى الذى يمكن أن تركز عليها برامج التوعية التثقيفية والصحية بحيث تعرف بوضوح البعد الحقيقى للتصرف فى ألبان الاسرة وتوجيهه التوجيه السليم والمرجو .

ان ما تقوم به المرأة عند الحسانية من عمل فى المنزل وفى حقل الانتاج الحيوانى ، وان كان له أهميته واعتباره ، الا انه بالمقارنة مع المجتمعات ذات الثروة الحيوانية كالبقارة مثلا يعد اقل حجما . فقد كتب كنسون عن دور المرأة عند البقارة فقال : —

« ان أول شىء واضح لمن يزور دارحمر لاول مرة هو كمية العمل الذى تقوم به النساء بالمقارنة مع الرجال فهن يعملن تقريبا معظم اليوم داخل وحوالى خيمهن بينما يجلس الرجال على العناقريب تحت ظل شجرة ظليلة يقضون أوقاتهم فى شرب الشاى والمناقشات العقيمة وبعض الاعمال التى يمكن تأديتها قعودا .. أما فيما يتعلق بالعمل الجسمانى فان النساء يجدن راحة قليلة ، الشاى المبكر للمجموعة ، (خش) اللبن (الرايب) ، نشل الماء والبحث عن حطب الوقود وتحضير الاوعية الجديدة لنقل الحبوب وحلب الابقار ، تحضير القطور للرعاة ، طحن الحبوب ، تحضير الغداء ، اعداد المراتب للتحرك كما يحصل عادة مرة كل ستة أيام تقريبا فعليها ان تقوم ايضا بفك الخيام وشحن العفش (العدة) على الابقار وتفريغها وتركيب الخيمة مرة أخرى . ان طاقتها فى هذا الصدد ولياقتها الجسمانية هى مثل معروف ويبدو الرجل عاطلا بالمقارنة معها .. »(١٢) .

اما اذا انتقلنا الى جانب الانتاج الزراعى فى النيل الابيض نجد ان دور المرأة يمر بثلاث مراحل هامة يتفاوت فيها هذا الدور تفاوتا كبيرا . هذه المراحل مرتبطة ارتباطا وثيقا بأطوار نموها الطبيعى والاجتماعى وهى فترة ما قبل الزواج (وسن الزواج عند الفتيات بين ١٥ — ٢٠ بالتقريب) وفترة الزواج وحتى نهاية فترة

الخصوبة (بين ٢٠ ــ ٥٠ بالتقريب)وفترة ما بعد الخصوبة (اى بعد الخمسين) .

فترة ما قبل الزواج :

الفتيات بين سن ١٢ ــ ٢٠ يتمتعن بحرية كبيرة فى الحركة والعمل قد تفوق كثيرا تلك التى تتمتع بها رصيفاتهن فى المجتمعات النيلية العربية فى شمال السودان . فبالاضافة الى القيام بمساعدة أمهاتهن فى العمل المنزلي من نظافة واعداد الطعام ورعاية الاطفال واحضار حطب الوقود وجلب الماء لهن دور فعال فى العمل خارج المنزل فهن يشاركن افراد الأسرة الرجال فى معظم الانشطة الزراعية كنظافة الارض المعدة للقطن والذرة وتحضير الارض للزراعة وتطهير الحشائش المستمر طيلة نمو المحصول . كما يشاركن مشاركة فعالة فى أهم العمليات الزراعية المتعلقة بالقطن وهى مهمة اللقيط فيذايوفرن بعض الايدى العاملة والتى قد يكلف جلبها من خارج الاسرة ثمنا باهظا.

وحرية العمل الاقتصادى فى هذه الفترة بالنسبة للفتاة هى جزء من حريتها الاجتماعية التى تتمتع بها فى هذه الفترة فلها حرية الاختلاط بالشباب ليس فقط فى مواقع العمل بل فى امكنة الرقص ومواقع تجمع الشباب المختلفة . وهى فى كل هذا تختار علاقاتها وتتعامل مع الفتيان بدرجة كبيرة من الاستقلال الشخصى والحرية الفردية .

فترة الزواج (فترة الخصوبة وفترة مابعدانقطاع الولادة)

على النقيض من مجتمعات المديرية الشمالية كالشايقية مثلا حيث تعمل المرأة فى الحقل جنبا الى جنب مع الرجل أومجتمع البقارة حيث تقوم بدور كبير فى الزراعة أو مجتمع الفور حيث تملك حقولا تقوم بالعمل فيها مستقلة عن زوجها فان المرأة المتزوجة تكاد تكون مبعدة تماما من الأنشطة الزراعية فى النيل الابيض اللهم الا فى القليل جدا من المناطق على طول المنطقة وعرضها .

ان الحسانية يرون فى عمل المرأة المتزوجة عيبا كبيرا مما يضطر الاسر الفقيرة اللجوء الى جلب الأيدى العاملة عن طريق الاجر ولا تسمح لنسائها المتزوجات بالعمل الا فى حالة الاضطرار أو الفقر الشديد .

والفترة التى تحرم فيها المرأة المتزوجة من العمل الزراعى هى فترة الخصوبة لذا من الممكن أن يفسر هذا على ان الحسانية يرون أن عمل المرأة المهم فى هذه الفترة هو تربية الاطفال والعناية بهم والانقطاع لهم اذا كان ذلك مسكنا . على أن هذه الفترة تأخذ من المرأة معظم سنى حياتها وتأتى وهى فى قمة اكتمال بنيتها الجسمانية مما كان يجعلها أقدر بالعطاءفى مجال العمل العام . خاصة وان الفترة الاخيرة التى تمر بها المرأة فى طور نموهاالطبيعى والاجتماعى وهى فترة ما بعد انقطاع الولادة فترة فى الغالب أن تكونقصيرة ونحن نعرف أن متوسط عمر المرأة فى السودان عامة قد لا تزيد عن الخمسين . والمرأة التى تعيش فيها بعد هذه السن عند الحسانية تخرج للعمل العام وتشاركفى الحقل الزراعى فى معظم الانشطة كنظافة الارض واعدادها للزراعة وتنظيفالحشائش وحراسة المحصول من الآفات والطيور ولقيط القطن ومراقبة العمال الذين يجلبهم عائل الاسرة للعمل بالاجر فى حقله .

ان ابعاد المرأة المتزوجة عن حقل الانتاج الزراعى نقطة هامة يجب الوقوف عندها ان اردنا تقييم ما يمكن ان تقدمهالمرأة فى طريق التنمية الريفية فى هذه المنطقة فابعادها بالطبع قد حرم المجتمع المحلى من نسبة كبيرة من القوى العاملة كان يمكن ان تستغل دون التأثير المضر بالادوار الاجتماعية الاخرى التى تقوم بها . كما انه قد كلف المجتمع عبئا لم يكن بالضرورة فى حاجة اليه أو على الاقل كان يمكن تحقيقه الا وهو عبء جلب الايدى العاملة عن طريق الاجر من خارج المجموعات التى تعمل فى الحقل الزراعى . واذا عرفنا ان التركيب السكانى فى النيل الابيض كما بدا لى فى احصائياتى عن بعض قرى الضفة الغربية يعكس نسبة أكبر للنساء كما هو الحال فى الكثير من المجتمعات السودانية لوضحت النسبة الهامة من الايدى العاملة التى حرم منهاالمجتمع والتى كان يمكن ان تعطى المجتمع جزءا كبيرا من احتياجاته من الايدى العاملة وان هذا يثير تساؤلا هاما عن مدى ما يمكن ان تحققه المرأة من توازن بين دورها فى رعاية أطفالها وعملها فى القطاع الزراعى فى هذه الفترة ان يسر لها ذلك .

ان الانتاج الزراعى خاصة فى محصول القطن يتطلب ايدى عاملة هائلة طول الموسم الزراعى وخاصة فى موسم اللقيط . والنظام المتبع هو جلب الايدى العاملة

من خارج المنطقة الزراعية وأهم مورد لها هو المجموعات الرعوية والبدوية المترحلة غرب النيل كالكواهله والشويحات وغيرهم • وتكون الايدى العاملة التى تجلب من هذه المجموعات الرعوية حوالى ٤٠٪ من جملة الايدى العاملة التى تعمل فى لقيط القطن بينما يوفر المجتمع المحلى النسبة الباقية(١٣) والملاحظ هنا ان المجموعات الرعوية تحضر للعمل الزراعى بكامل أسرها وتشترك جميع نسائها فى لقيط القطن ويصبحن بذلك مصدر دخل هام لاسرهن •

يتضح من هذا أن مشاركة المرأة المتزوجة فى الحقل الزراعى قاصرة الى درجة كبيرة ، وهذا نتيجة لتقسيم العمل التقليدى والقيم الموروثة التى ربطت العمل الزراعى بالرجل بينما افرد للمرأة المتزوجة مجالا للعمل فى قطاع واحد من الاقتصاد التقليدى وهو قطاع الانتاج الحيوانى (ليس الرعى بالطبع) •

ان احجام المرأة عن المشاركة فى الحقل الزراعى ربما كان فيه قصور لدورها ومساهمتها فى التنمية الزراعية• اذ انها تمثل قطاعا شبه معطل يمكن تحريكه والاستفادة منه • فالتنمية الاجتماعية يجب أن ترمى فى المقام الاول الى الاستغلال الكامل للموارد البشرية والقدرات الكافية فيها • وان فك القيود عن يد المرأة المعطلة هو وسيلة التنمية وغايتها فى آن واحد •

غير ان هذا يجب ان لا ينسينا المجالات الاخرى التى تعمل فيها المرأة عند الحسانية ، فبالاضافة الى مجالات الانتاج الزراعى الحيوانى والعمل المنزلى فان المرأة تعمل أيضا بطريقة أو بأخرى فى عدة مجالات ربما كانت ذات أهمية أقل، فهى تشتغل بالاعمال اليدوية كعمل الاطباق والبروش والمفروشات والسجاد والاشغال اليدوية كما تتاجر بهذه الاشياء وبغيرها (نظام الدلالية المعروف) فى نطاق محدود وباعداد بسيطة •

وحتى هذه الاعمال تقوم بها فى الغالب أنواع معينة من النساء هن الكبيرات فى السن والمطلقات اللائى يعتمدن أكثر على أنفسهن ونساء الاسر الفقيرة جدا • أما الاسر الموسرة والغالبية من النساء فانها لا تشتغل بهذه الاعمال وتعتبرها عيبا اذ انه يعكس عدم مقدرة القائمين على أمرها من كفايتها وتوفير الرزق لها فالوضع المثالى عند الحسانية أن تعتمد المرأة كلية على ولى أمرها من الرجال • وهذا بالطبع يجعل المرأة عالة على الرجل ومعتمدة عليه اعتمادا كبيرا

مما يفقدها فرصة ابراز دور مستقل لهـا يكسبها شخصية مميزة عن الرجل وهـذا بالطبع يجعل المرأة عالة على الرجل ويحول دون مساهمتها الـكاملة فى المجـالات الاقتصادية وبالتالى يقف عائقا مانعا فى سبيل ايجاد صيغة جديدة ترى فى المرأة منطلقا مثمرا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية •

المرأة ودورها السياسى :

بالرغم من أن المجتمع التقليدى يحرم المـرأة من المشاركة المباشرة فى الحقـل السياسى أى فيما يختص باتخاذ الخطط والقرارات الهامة التى تمس حياة المجموعة بشكل عام ويضع الوظائف التى تتـولى ادارة الشئون العامة فى أيدى الرجال فان المرأة على عكس ما يبدو من وجهة النظر الانطباعية ، تجد طريقها للتأثير فى اتخاذ القرارات الهامة والعامة • وقد اوضحت الدراسة التى قام بها البروفسير كنسون ان المرأة رغم ابعادها الرسمى من أنـدية الرجال (الخيم) حيث تتخذ القرارات والخطط القبلية ، وبالرغم من ضعف نفوذها المباشر الا أنها عن طريق غير مباشر تؤثر تأثيرا كبيرا على مجرى الاحـداث العامة وذلك عن طريق الاغانى التى تنظمها فى المدح والهجاء وبذا تتمكن من اسماع صوتها للرجال وتبدى رأيها وحكمها بل هى فى الواقع تمهد لكل سياسـة وكل قرار • ان هذا ينطبق تماما على وضـع ودور المرأة السياسى غير المباشر فى النيل الابيض فهناك العديد من النساء اللائى ينظمن الشعر (يسمين محليا بالحكامات)وهن يمدحن مجلس الرجال والزعمـاء ويذمن الرذائل والمساوىء والقصور ولهن نفوذ كبير فى المجتمع • هذه الاغـانى تعتبر ، كما أوضح كنسون ، سجلا حافلا وعاما للرجال والزعماء وسجلا أسـودا الخائرين والساقطين والمبعدين من مواقع القيادة والمسئولية •

ولقد تمكنت أثناء اقامتى بين الحسانية من تسجيل الكثير من هـذه الاغانى وهى بلاشك تحفل بالكثير وتعكس فى بعض الاحيان أفقا وثقافة وحكمة فطرية بالغة عند هؤلاء الحكامات •

هذا الدور السياسى الذى تلعبـه المرأة الحسانية فى المجتمع التقليدى لازال قائما وان بدأت أهميته تزول نسبة لاختفاء المنازعات والمشاحنـات والمنافسـات فى الزعامة بطرقها التقليدية والتى كانت فى كثير من الاحيان مبـارزة مفتوحة بين الطامعين فى النفوذ والمنافسين على السلطة والجاه والثروة • واهم من ذلك كله ان

المرأة اليوم بدأت تتخذ طريقها المباشر للمشاركة فى جعل الشئون العامة واتخاذ القرارات عن طريق النظم المستحدثة التى واكبت انفتاح الاتحادات النسائية والتنظيمات الشعبية على الريف وايجاد صيغة جديدة لمشاركة المرأة فى حفل العمل العام • غير أن هذه التنظيمات لازالت فى بدايتها والاتحادات النسائية غير قادرة على احداث التغيير فى كثير من المناطق غير أن فى مجال المجالس الشعبية قد برز وجه المرأة ومشاركتها ليس كعضو شرف فقط كما ينطبع فى ذهن الكثيرين ولكن مساهمة بطريقة مقبولة فى اتخاذ القرارات ومناقشة السياسات والامور العامة ولقد توصلت الى ذلك عن طريق ملاحظاتى الخاصة فى مجلس شعبى أم رمته حيث كنت أقيم وهو مجلس ينتظم فى عضويته عدد من النساء يساهمن فى مناقشاته ومداولاته واتخاذ قراراته •

ان مشاركة المرأة فى هذه المجالس الشعبية فى ريفى النيل الابيض قد يفتح أمامها فرص الوعى والخبرة فى العمل فى المجالات العامة والخروج للعمل فى المجتمع المحلى يزيدها احساسا ووعيا بعنصر الانتماء لذلك المجتمع من ناحية والمجتمع الكبير من ناحية اخرى • وهذا أمر حيوى ويعد حجر الزاوية لاى سياسة تنموية عامة ، اذ بدون الانتماء والاحساس الاقليمى والقومى من المستحيل ان يلتزم الفرد بدور فعال فى فهم وتحقيق غايات التنمية القومية •

خلاصة :

ان مناقشة دور المرأة فى هذا الاطار العام قد وضح لنا التالى :

١ ــ للمرأة دور بارز فى بعض الانشطة الاقتصادية والاجتماعية ويوكل اليها نظام تقسيم العمل العرفى ادوارا هامة •

٢ ــ يكاد لا يكون للمرأة دور يذكر فى عدة جوانب هامة فى شبكة العمليات فى الانشطة الاقتصادية والاجتماعية •

٣ ــ يختلف دور المرأة باختلاف المراحل الهامة التى تمر عليها فى حياتها وهى فترة ما قبل الزواج وفترة الزواج وحتى وقت الولادة وفترة ما بعد الخصوبة •

وهذا جانب هام رأيت ان اتطرق اليه فى هذا المقال اذ أنه يكاد يكون معدوما فى كثير من الدراسات التى تناولت وضعية المرأة ودورها باستثناء دراسة

فورتس للاشانتى للغالب العام للاسرة فى ذلك المجتمع • ان افتراض وضعية واحدة أو دور واحد للمرأة يفقد تحليلنا وفهمنا لدورها الجانب الديناميكى المرحلى والمتغير لواقعها وبالتالى قد يهمل حقائق مغايرة فى مناقشة دور المرأة الاقتصادى وبالاخص عند تناولنا للجانب الزراعى •

هذه باختصار نبذة مختصرة لم تكن غير تلمس سريع لوضع المرأة ودورها فى المحتوى التقليدى ، والحديث لمجتمع النيل الابيض أرجو أن يكون قد أبرز ما يمكن أن يكون محل نقاش لايجابيات وسلبيات ذلك الدور ، فانطلاقة الحاضر والمستقبل يجب أن تبنى على واقع اليوم والتنمية ما هى الا أخذ ذلك الواقع الى واقع أفضل تنطلق فيه الامكانيات المعطلة وتستثمر فيه القدرات المتاحة •

المراجـــع

١ ـ شمال النيل الابيض هو المنطقة الواقعة بين خزان جبل الاولياء وقرية الشوال جنـوبى الدويم وقد تعرف لعهد طويل بمجلس ريفى شمـــال النيل الابيض وهى اليوم تكون القطاع الشمالى من مديرية النيل الابيض الحديثة التكوين .

Evans-Pritchard, E., Position of Women in primitive Societies and other Essays.

Gunnison, I., Position of Women among the Humr, Sudan society No. 2, 1963.

Barth & Person : The Social Organization of the Marri Balauch.

Al-Shahi, A. S. : The Role of Women in Politics in Nuri, Sudan Society, 1969.

Nylson, S. : In Nylson, The Desert and the Sown, California Press, 1973

Lowis, I. M., Spirit possession and Deprivation Cult, Man, 1966.

Asad, T., The Kababish Arabs, Hurst, Co., 1970.

Bedri, B. Y., The Sociology of Food Among the Fetemhab, M. Sc. Dissertation, Dep. of Anthropology & Sociology, U. of K., 1974.

Harir, Sharif : The Position & Role of Women among he Zagawa (Unpublished Report), Dep. of Anth. & Soc., U. of K., 1973.

Constantinides, P., Zar Cult in the Sudan, Unpublished Ph.D. thesis University of London, 1972.

En-Nagar, S., Zar Cult in Omdurman, (Unpublished., Dip. Dessertation Bergen, 1972.

Buxton, Religion and Healing in Mandari, Oxford University Press 1973.

٤ ـ بيرسون وبارث ، المرجع اعلاه .

٦ ـ كنسون ، المرجع اعلاه .

٧ ـ من اهم الخلافات بالنسبة للحسانية ان هذه السلبيات الموروثة قد لا تنطبق بنفس القـدر على المراة فى جميع مراحل حياتها فقد تقـــل حدتها كثيرا فى فترة ما قبل الزواج وفترة ما بعـد انقطاع الولادة كما يتضح فى هذا النقاش .

٨ ـ كنسون ، المرجع اعلاه .

٩ ـ بيرسون وبارث ، المرجع السابق .

١٠ ـ لقد نزح الحسانية الى هذه المنطقة من منطقة صحراء بيوضة غربى شندى .

١١ ـ كنسون ، المرجع السابق .

١٢ ـ انى مدين للاستاذ احمد البشير بترجمة هذه المقتطفات من مقال كنسون .

١٣ ـ راجع مقـالتى :

The Nomadic and Sedentary: Polar Complimentaris not pllar Oppsities,

in NYLSON, co., The Desert & the Sown.

١٥ ـ انى مدين بالشكر للزملاء الذين ابدوا ملاحظاتهم وتعليقاتهم على هـــذا المقـــال واخص منهم فهيمة زاهر ود. عبد الغفار محمد احمد ود. تاج الانبيـاء على الضـــوى .

Fortes, M., Time and Social Structure: The Ashanti Case, in Fortes: Social Structure O.U.P., 1949.